كرسيُّ السِّيرة – الجامعة الإسلاميَّة في بَهَاوَلْبُورَ – باكستانَ

المؤتمر الدَّوْليُّ الحاديَ عشَرَ للسِّيرة النَّبويَّة
الِالتزام بالحقوق في ضوء السِّيرة النَّبويَّة، ومتطلَّبات العصر الحاضر
الأسس الفكريَّة – التَّنفيذ العمليُّ – التَّشكيل الحضاريُّ

مَعَالِمُ فِي دِرَاسَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
مَنْهَجِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي ضَوْءِ أُصُولِ الاعْتِقَادِ

د. فيصلُ بن محمَّدِ بن حَمِيدٍ القلَّافُ

الأستاذ المشارك في قسم التَّفسير والحديث
كلِّيَّة الشَّريعة والدِّراسات الإسلاميَّة، جامعة الكويت

faisal.algallaf@gmail.com

الملخَّص

علم السِّيرة النَّبويَّة من أجلِّ العلوم الشَّرعيَّة وأهمِّها في تفسير القرآن وفهم الدِّين الإسلاميِّ فروعًا وأصولًا، ولا بدَّ من قراءته ودراسته بمنهجيَّةٍ علميَّةٍ صحيحةٍ، تعين علىٰ تفسير أحداثها بصورةٍ صحيحةٍ، توصل إلىٰ أهداف هٰذا العلمِ وثمراته.

وجاء هٰذا البحثُ ليرسُم معالمَ هٰذه المنهجيَّةِ، مراعيًا بناءَ علم السِّيرة النَّبويَّة علىٰ علم العقيدة؛ لشدَّة ترابط العلمَينِ؛ فقدِ اصطبغت تفاصيل السِّيرة بأصول الِاعتقاد من وجهٍ، واستمدَّ المحقِّقون من أهل السُّنَّة جُمَل العقائد من علم السِّيرة من وجهٍ آخرَ، وتعرَّض البحث لخمس معالمَ تضيء طريق النَّاظر في السِّيرة.

الأوَّل: أنَّ أعظم مقاصد علم السِّيرة هو التَّعرُّف علىٰ هديِ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – في كلِّ موقفٍ وحالٍ؛ لتنمية محبَّته وتعظيمه في القلوب؛ إذْ هو في الذِّرْوة العليا منَ الكمال والجمال البشريِّ والدِّينيِّ، ولِيَصِحَّ اتِّباعُه والِاقتداء به؛ إذْ كان هو الصُّورةَ النَّموذجيَّة للتعبُّد بدين الإسلام كما شرعه الله ورضِيَه.

والثَّاني: أنَّ المَشهد المستمرَّ في جميع تفاصيل السِّيرة هو اجتهاد النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – في تحقيق التَّوحيد وإخلاص الدِّين لله، وأنَّ هٰذا المعنىٰ كان هو لبَّ الرِّسالة، ومَعْقِدَ الخصومة مع المشركين، وهٰذا المعنىٰ هو الَّذي ينتظم وقائع السِّيرة كلَّها، وبه تُفهَم، ومن أخلَّ به، اضطربت معرفته بالسِّيرة ولا بدَّ.

والثَّالث: أنَّ الله – سبحانه – أعلىٰ شأن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأوجب تعظيمه؛ فيجب الوفاء بهٰذا الأصلِ الكبير من أصول الدِّين، لٰكنْ بتوسُّطٍ شرعيٍّ، لا يَحْسُر عن تفضيل النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – وإثبات خصائصه، ولا يتجاوز إلى الغلوِّ في النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – وإطرائه بأوصاف الرُّبوبيَّة والإلٰهيَّة، وينتج عن هٰذا أن تكون محبَّتُه في الله، وأن تكون طاعته طاعةً لله، وألَّا يُعبَدَ من دون الله بوجهٍ منَ الوجوه.

والرَّابع: أنَّ السِّيرة النَّبويَّة سيرة الرَّسول الخاتَم المبعوث منَ الله – تعالىٰ – لتبليغ شرعه ودينه؛ فتجب قراءتها كذٰلك، باستحضار الشَّهادة بالنُّبوَّة والرِّسالة، وليست سيرةً لمجرَّد إنسانٍ عظيمٍ منقطعٍ عنِ السَّماء.

والخامس: أن يستحضرَ المسلم عند قراءة السِّيرة حقوق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – عليه؛ ليكملَ ثوابه ويزدادَ إيمانُه؛ فيحبَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويعظِّمَه، ويصلِّيَ ويُسَلِّمَ عليه كلَّما ذُكِر، ويَنصُرَه في دينه وسُنَّته، ويَرقُبَه في آله، ويُكرمَه في صحابته.

الكلمات المفتاحيَّة:

السِّيرة النَّبويَّة، العقيدة، التَّوحيد، السُّنَّة النَّبويَّة، الِاعتدال، الحقوق.

۞۞۞

Landmarks in the Study of the Prophetic Biography (Sīrah): A Methodological Framework in Light of Foundations of Islamic Creed

Dr. Faisal bin Muhammad bin Hameed Al-Qallaf

Associate Professor, Department of Tafsir and Hadith,
College of Sharia and Islamic Studies, Kuwait University

faisal.algallaf@gmail.com

Abstract

The study of the Prophet's Biography (Sīrah) is among the most exalted Islamic disciplines and plays a central role in interpreting the Qur'an and understanding Islam in both its doctrinal foundations and legal branches. It must therefore be approached through a sound scholarly methodology that ensures accurate comprehension of its events and leads to the realization of its objectives and benefits.

This study seeks to outline the principal methodological foundations for studying the Sīrah, while affirming the necessity of grounding it in Islamic creed (ʻAqīdah), due to the strong interrelationship between the two sciences: the events of the Sīrah are deeply connected to doctrinal principles, and, in turn, Sunni scholars have derived essential theological insights from it. The research highlights five key methodological landmarks.

First, the foremost aim of studying the Sīrah is to become intimately acquainted with the Prophet's guidance—peace and blessings be upon him—in all circumstances, in order to strengthen love and reverence for him, for he represents the highest ideal of human and religious perfection. Through this, proper emulation becomes possible, as he embodied the perfect model of devotion to Islam as ordained by God.

Second, the dominant theme running throughout the Sīrah is the Prophet's tireless effort to establish pure monotheism (tawḥīd) and exclusive devotion to God. This constitutes the essence of his mission and the central axis around which the events of the Sīrah revolve; neglecting this principle inevitably leads to confusion in understanding the Sīrah.

Third, God exalted the rank of the Prophet and commanded his veneration. Fulfilling this principle is obligatory, yet within the bounds of the Sharīʻah: without denying his virtues and unique distinctions, nor exaggerating to the extent of attributing to him qualities of divinity. Love for him must be for God's sake, obedience to him is obedience to God, and worship is due to God alone.

Fourth, the Sīrah is the biography of the final Messenger sent by God to convey His religion, and must therefore be read with conscious acknowledgment of his prophethood, not merely as the life story of an extraordinary historical figure.

Fifth, the Muslim should read the Sīrah while observing the Prophet's rights: loving and revering him, sending blessings upon him, supporting his religion and Sunnah, honoring his family, and respecting his Companions, thereby increasing faith and reward.

Keywords:

Prophetic Biography (Sīrah), Creed, Monotheism (Tawḥīd), Sunnah, Moderation, Rights.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

إنَّ الحمد لله، نَحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلٰهَ إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ، فإنَّ السِّيرة النَّبويَّة هي تحقيقٌ عمليٌّ لدين الإسلام بحذافيره، كما شرعه الله – سبحانه – ورضِيَه؛ فقد كان النَّبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – أعلمَ النَّاس بالله – تعالىٰ – وأخشاهُم له، مع كونه الرَّسولَ المكلَّف بتبليغ الوحي وتبيينه.

ولذلك: وجب على النَّاظر في السِّيرة النَّبويَّة أن يلاحظَ هٰذه الحقيقةَ: الَّتي تسري في جميع أحداثها وتفاصيلها؛ فيرىٰ في كلِّ موقفٍ وقولٍ وفعلٍ أنَّه تحقيقٌ لمراد الله – عزَّ وجلَّ – وتعبُّدٌ بأمره ونهيه، ثمَّ يعتبرَ ذٰلك في نفسه؛ فيقتديَ بالنَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – في واقعه في العصر الحاضر، ولا يجوز لقارئ السِّيرة النَّبويَّة أن يُغفِلَ هٰذا الأصلَ العظيم؛ فيجرِّدَها من روحها، ويفسِّرَ تصرُّفاتِ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – بغير معانيها، ويفوِّتَ ثمراتِ السِّيرة، ويقطعَها عن واقعه المعاصر.

ومن هنا نشأت فكرة هٰذا البحثِ؛ لرسم أبرز المَعالم المنهجيَّة لدراسة السِّيرة النَّبويَّة، الَّتي تضمن استقامة النَّظر فيها علىٰ قانون الشَّرع، ولِيَخْلُصَ الدَّارسُ إلىٰ مقاصدها، ويتحقَّقَ بفضائلها وثمراتها، وذٰلك ببناء الدِّراسة علىٰ أعرق أصول الِاعتقاد، وهي توحيد الله سبحانه، وإخلاصُ الدِّين له، واتِّباعُ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، وتعظيمُه وتوقيرُه.

وهٰذا يؤسِّس لنظرٍ كلِّيٍّ في السِّيرة النَّبويَّة، يتعالىٰ على الأنظار الجزئيَّة؛ فيوصِدُ أبوابَ التَّحريف في وجوه أهل البدع والمنافقين: الَّذين يَرُومُون تبديل الدِّين من خلال تطويع السِّيرة النَّبويَّة لأهوائهم، بحيث يعيدون صياغةَ أحداثها بغير ما صحَّ في النَّقل، ويعيدون تفسيرَها بغير مقاصد النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – الَّتي تدلُّ عليها نصوصُ أقواله وشواهدُ أحواله.

ومع أهمِّيَّة هٰذا الموضوعِ ومَسِيس الحاجة إليه: فلم أرَ من أفرده ببحثٍ مستقلٍّ، وقلَّ من تعرَّض له، أوِ انطلق منه في تحقيق السِّيرة النَّبويَّة وتدريسها، فانعقد العزم علىٰ هٰذه الكتابةِ.

خطَّة البحث.

واقتضى النَّظرُ تقسيمَ البحث – بعد المقدِّمة – إلىٰ تمهيدٍ وأربعة معالمَ وخاتمةٍ.

- فالتَّمهيد فيه التَّعريف ببعض مفردات العُنوان، الَّتي تعين علىٰ فهم موضوع البحث، وفيه ثلاث مسائلَ.
- والمَعلَم الأوَّل: المشهد المستمرُّ في السِّيرة تحقيقه – صلَّى الله عليه وسلَّم – للعبوديَّة، وفيه أربع مسائلَ.

• والثَّاني: المقصد من علم السِّيرة معرفته – صلَّى الله عليه وسلَّم – معرفةً صحيحةً، وفيه ثلاث مسائلَ.

• والثَّالث: التَّوسُّط في تفسير السِّيرة والشَّمائل، بين أوهام الغلاة وأخطاء الجفاة، وفيه ثلاث مسائلَ.

• والرَّابع: الوفاء بحقيقة السِّيرة: أنَّها سيرةُ لنبيٍّ مرسلٍ، صلَّى الله عليه وسلَّم، وفيه ثلاث مسائلَ.

• والخامس: مراعاة قارئ السِّيرة لحقوق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – علىٰ أمَّته، وفيه عدَّة حقوقٍ.

• والخاتمة فيها أبرز النَّتائج وبعض التَّوصِيَات.

وذيَّلت البحث بقائمةٍ للمصادر.

ولا يفوتني أن أتوجَّه بالشُّكر إلى الإخوة في كرسيِّ السِّيرة النَّبويَّة في الجامعة الإسلاميَّة في بَهَاوَلْبُورَ علىٰ عنايتهم بفنِّ السِّيرة، وعلىٰ تنظيمِهم للمؤتمر الدَّوْليِّ الحاديَ عشَرَ بعُنوانِ "الِالتزام بالحقوق في ضوء السِّيرة النَّبويَّة، ومتطلَّبات العصر الحاضر"، وعلىٰ دعوتهمُ الكريمةِ لي بالمشاركة؛ فكان هٰذا البحثُ، ولله الحمدُ.

وأسأله – سبحانه – التَّوفيق فيه للصَّواب، وأن يتقبَّله، ويباركَ فيه، وينفعَ به كلَّ من قرأه أو نظر فيه منَ المسلمين؛ إنَّه – سبحانه – واسعٌ عليمٌ.

التَّمهيد

ينبغي – قبل الدُّخول في تفاصيل البحث – تمهيدُ الطَّريق إلىٰ فهمها بتعريف بعض مفردات العنوان، الَّتي قد يَغمُض معناها علىٰ بعض القرَّاء، وهي لفظة "المَعالِم" ولفظة "المنهجيَّة"، وذٰلك في مسألتَينِ، وبالله التَّوفيقُ.

المسألة الأولىٰ: بيان المراد بـ(المَعالِم) في عُنوان البحث.

"المَعالِم" جمع "مَعْلَمٍ"، اسمُ مكانٍ منَ العلم، بمعنىٰ موضِعِه؛ فهو ما يحصل العلمُ عنده، ويُطلَق علىٰ الأثر الَّذي يُستدَلُّ به على الطَّريق؛[1] لحصول العلم بالطَّريق به، ويُستعار لمعاقد العلوم، الَّتي ترشد دارسَها والباحثَ فيها إلىٰ مقاصدها، حتَّىٰ يستقيم سيرُه في قراءته ونظره وتحقيقه.

ومَعالِم السِّيرة النَّبويَّة كثيرةٌ، وأهمُّها خمسةٌ، وهي موضوع هٰذا البحثِ.

١. المشهد الأكبر، الَّذي تدور عليه أحداث السِّيرة كلُّها، ويلحظه القارئ في جميع تفاصيلها، وهو تحقيق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – لتوحيد الله وعبادته في حياته كلِّها.

٢. المقصود الأعظم، الَّذي يجب على المسلم أن يضعَه نُصْبَ عينَيهِ في تعلُّم السِّيرة، وهو اتِّباع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ليستضيء بأحواله كلِّها؛ فيكونَ علىٰ نورٍ وهدًى في مواقفه وأقواله وأفعاله.

---

١. "الصِّحاح" للجوهريِّ (ترتيبه: ٥/ ١٩٩١).

٣. المعتقد الأقوم في النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، المتوسِّطُ بين غلوِّ المسرفين وجفاء المقصِّرين، بحيث يرى المسلم النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – كما هو، بلا تزويرٍ يُفسِد عليه تصوُّره لأحواله وسُننه.

٤. بناء فهم السِّيرة على الشَّهادة بالنُّبوَّة والرِّسالة، وما يستتبعه ذٰلك من دِلالة الله – جلَّ ثناؤه – علىٰ صدق نبيِّه – صلَّى الله عليه وسلَّم – بأنواع البراهين والخوارق، وعصمته له في تصرُّفاته، وتأييدِه له في كلِّ أحواله.

٥. حقوق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – علىٰ كلِّ مؤمنٍ؛ ليَجتهدَ المشتغل بالسِّيرة في الوفاء بتلك الحقوقِ، ويتكمَّل بذٰلك بفضائل علم السِّيرة وثوابها.

ويأتي – بعون الله – تفصيل هٰذه المعالِم الخمسة في المطالب التَّالية.

المسألة الثَّانية: بيان المراد بـ(المنهجيَّة) في عُنوان البحث.

"المنهجيَّة" مصدرٌ صناعيٌّ منَ "المَنْهَج"، وهو الطَّريق الواضحة،[١] ويُستعمَل في الطَّريق العلميَّة، الَّتي يسلكها الطَّلَبة والباحثون، من مبادئ الفنون وأوَّليَّاتها نحو كلِّيَّاتها وغاياتها، فالمنهجيَّة هي الصِّفة المميِّزة للمنهج العلميِّ؛ فهي خصائصه.

ومنهجيَّات العلم متنوِّعةٌ، بحسَب مقاصد المتعلِّمين ومراتبهم، والمنهجيَّة المقصودة هنا في علم السِّيرة النَّبويَّة هي مَسْلَكٌ ينطلق من أصول الاِعتقاد، وهي شهادة التَّوحيد: أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ، وشهادة الاِتِّباع: أنَّ محمَّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – رسول الله.

ودراسة السِّيرة بهٰذه المنهجيَّةِ يربطها بمقاصد الدِّين الكبرىٰ، ويتَّسع في تقرير أحكامها بنظرٍ كلِّيٍّ: يحيط بتفاصيلها وجزئيَّاتها، ويَسلُك أحداثها في نظامٍ جامعٍ، يفسِّر أحداثها تفسيرًا متَّسقًا واضحًا.

المسألة الثَّالثة: بيان المراد بـ(أصول الاِعتقاد) في عُنوان البحث.

"الأصول" جمع "أصلٍ"، وهو ما يُبنىٰ عليه غيرُه، أو ما يتفرَّع عنه غيرُه،[٢] ويُستعمل في المعنويَّات؛ فيُطلَق على الحقيقة الأولىٰ: الَّتي تستلزم ما يليها، أو يتوقَّف عليها ما بعدَها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم]، فالإيمان القلبيَّ أصلٌ، والعمل فرعه؛ لأنَّ الإيمان يقتضي العملَ، ولأنَّ العمل لا يَصِحُّ من غير الإيمان.

و"الاِعتقاد" في اللُّغة: الجزم واليقين، وهو مأخوذٌ من عَقْدِ الحبل، كأنَّ الجازم يَعقِد قلبه علىٰ ما يتيقَّنه، أيْ: يربطه ويَشُدُّه؛ فيكون ثابتًا فيه ولا يتفلَّتُ منه، والاِعتقاد في الاِصطلاح من معنى الإيمان في الجملة، وهو التَّصديق

---

١. "الصِّحاح" للجوهريِّ (ترتيبه: ١/ ٣٤٦).

٢. "تاج العروس" لمرتضًى الزَّبيديِّ (٢٧/ ٤٤٧).

الجازم بتفاصيل الشَّرع وحقائق الغيب، ويتبع ذٰلك بقيَّةُ معنى الإيمان، وهو القَبول والإقرارُ والعملُ، ويُطلَق على المفعول، بمعنى العقيدة، وهي ما يدين به الإنسان.[1]

فأصول الِاعتقاد هي كُلِّيَّاته الأولىٰ: الَّتي يُبنىٰ عليها سائرُه، وبقيَّةُ معاني الإيمان في القلب واللِّسان والجوارح، وأعرقُ ما يَصدُق عليه "أصل الِاعتقاد" الشَّهادتانِ: شهادةُ أن لا إلٰهَ إلَّا الله، وشهادةُ أنَّ محمَّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – رسول الله؛ فالشَّهادة الأولىٰ هي كلمة التَّوحيد، ومعناها: أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله، والشَّهادة الثَّانية هي كلمة الِاتِّباع، ومعناها: أنَّ الله – سبحانه – نبَّأ محمَّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – بالدِّين والشَّرائع، وبعثه إلى النَّاس كافَّةً ليدعوَهم إلىٰ ذٰلك ويأمرَهم به ويجاهدَهم عليه.

المَعْلَم الأوَّل

المشهد المستمرُّ في السِّيرة: تحقيق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – للعبوديَّة

ينبغي للباحث في السِّيرة النَّبويَّة أن يلحظ المعنى المستمرَّ في جميع أحداثها، الَّذي ينتظم جميعَ تفاصيلها، وهو اجتهاد النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – في عبادة ربِّه – تبارك وتعالىٰ – وإخلاصِ الدِّين له؛ فقدِ استغرق ذٰلك هَمَّ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – كلَّه، في كلِّ حركةٍ وسكَنةٍ، وفي كلِّ موقفٍ، امتثالًا لقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام]، وقد وَفَّىٰ – صلَّى الله عليه وسلَّم – بذٰلك بلسانه وحاله، وفي جميع أحيانه.

وهٰذا من أهمِّ المعالم العقديَّة الَّتي ترسُم طريق النَّظر في السِّيرة النَّبويَّة، وبيان ذٰلك في أربع مسائلَ.

المسألة الأولىٰ: تحقيق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – التَّوحيدَ في نفسه.

لا تخطئ عينُ النَّاظر في السِّيرة أنَّ النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – يقصِد في كلِّ موقفٍ العملَ بشرع الله – عزَّ وجلَّ – وأحكامِه، وتحقيقَ مراده ومقصوده، ويطلبُ رحمته وثوابه، ويتَّقي نِقمته وعقابه، ويَحتمِل الشَّدائد العظيمة في سبيله؛ فلم يزلِ الله – عزَّ وجلَّ – نُصْبَ عينَيهِ: يرقُبُه، ويسعىٰ في رضاهُ ومحبَّتِه في كلِّ حينٍ، وعلىٰ كلِّ حالٍ، حتَّىٰ تحقَّق – صلَّى الله عليه وسلَّم – بمقام الإحسان، الَّذي عرَّفه بقوله: «أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنَّه يراك».[2]

---

١. "المصباح المنير" للفَيُّوميِّ (٢/ ٤٢١).

٢. متَّفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (١/ ١٩ برقْم ٥٠) ومسلمٌ (١/ ٣٠ برقْم ٩) من حديث أبي هريرةَ، وأخرجه مسلمٌ (١/ ٢٨-٢٩ برقْم ٨) من حديث عمرَ بنِ الخطَّاب.

ولا يخفىٰ علىٰ قارئ السِّيرة أيضًا تمامُ افتقار النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – إلىٰ ربِّه – عزَّ وجلَّ – وتوكُّلِه عليه وتفويضِه إليه في جميع شئونه، وكان من دعائه: «يا حيُّ، يا قيُّومُ، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كلَّه، ولا تَكِلْني إلىٰ نفسي طَرْفَةَ عينٍ»،[1] وهٰذا من كمال العبوديَّة أيضًا.

وهو – صلَّى الله عليه وسلَّم – في ذٰلك كلِّه لا يلتفت إلىٰ غير الله تعالىٰ، ولا يُشرِك معه غيره، كيْ يَخلُص دينه كلُّه لله عزَّ وجلَّ، كما أُمِر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزُّمَر]، ثمَّ قولِه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزُّمَر].

ولم يكن معنى العبادة في السِّيرة مقصورًا علىٰ شعائر الصَّلاة والصِّيام والصَّدقة والحجِّ والعمرة، مع بلوغ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – مرتبة الكمال في هٰذه العباداتِ العظيمة، بل كان معنى العبادة شاملًا لجميع أقواله وأفعاله، وتعامله مع أهله وصحابته والنَّاس جميعًا؛ فكان يأتي في كلِّ ذٰلك بالواجب والفاضل، وقال الله – عزَّ وجلَّ – في تزكيته: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ [القلم].

المسألة الثَّانية: غائيَّة التَّوحيد في دعوة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

كان التَّوحيدُ – وهو إفراد الله بالعبادة والقصد والطَّلب – هو أساسَ الرِّسالة المحمَّديَّة، ومَعقِدَ الخصومة بين النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – والمشركين، كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «أُمِرت أن أقاتلَ النَّاس حتَّىٰ يقولوا: لا إلٰهَ إلَّا الله، فمن قال: لا إلٰه إلَّا الله، فقد عَصَم منِّي ماله ونفسه إلَّا بحقِّه، وحسابه على الله»،[2] كيف لا، وهو مقصد بعثة الرُّسل مطلقًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل: ٣٦]؟! بل هو سبب الخلق أصلًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذَّاريات].

وكلُّ مغازي النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – إنَّما كانت لإقامة دين الله – سبحانه – وإعلاء كلمته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ولم يكن مرادُ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – في رسالته حظًّا منَ الدُّنيا، ولا مُلْكًا أو عُلُوًّا في الأرض، كما قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهٰذا جليٌّ في سيرته صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فقد كان زاهدًا في الدُّنيا، متواضعًا لله في معاملة النَّاس، وهٰذا من أدلَّة نبوَّته أيضًا.

---

١. أخرجه النَّسائيُّ في "الكبرىٰ" (٩/ ٢١٢ برقْم ١٠٣٣٠) بإسنادٍ حسنٍ عن أنسِ بن مالكٍ، وله شاهدٌ في دعاء المكروب، أخرجه أبو داود (٧/ ٤٢١-٤٢٢ برقْم ٥٠٩٠)، وصحَّحه ابن حِبَّانَ (الإحسان: ٣/ ٢٥٠ برقْم ٩٧٠)، من حديث أبي بكرةَ الثَّقفيِّ، وفي إسناده جعفرُ بن ميمونٍ، وهو ضعيفٌ، ولا بأسَ به في الشَّواهد.

٢. متَّفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (٢/ ١٠٥-١٠٦ برقْم ١٣٩٩) ومسلمٌ (١/ ٣٨ برقْم ٢٠) من حديث عمرَ بنِ الخطَّاب، وأخرجه الشَّيخانِ عن جماعةٍ منَ الصَّحابة، وهو حديثٌ متواترٌ، انظر "قطفَ الأزهار المتناثرة" للسُّيوطيِّ (ص: ٣٤).

المسألة الثَّالثة: أثر فهم التَّوحيد من خلال السِّيرة النَّبويَّة في فهم الدِّين.

من أعظم فوائد السِّيرة النَّبويَّة فهمُ حقيقة التَّوحيد الَّذي جاء به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ دعوته للمشركين ومحاجَّته لهم صريحةٌ في إقامة الحجَّة علىٰ تفرُّد الله – سبحانه – بالإلٰهيَّة، وبطلان عبادة كلِّ ما سواه، ولم تكنِ الخصومة بينه وبين قومه منصبَّةً على الرُّبوبيَّة أوِ الكمال؛ فقد كانوا مقرِّين بذٰلك في الجملة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونُس].

وهٰذا يبيِّن قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسُف]، ولذٰلك قال قتادةُ في تفسير هٰذه الآيةِ: «إنَّك لستَ تلقىٰ أحدًا منهم إلَّا أنبأك أنَّ الله ربُّه، وهو الَّذي خلقه ورزقه، وهو مشركٌ في عبادته».[1]

وتعجب بعد هٰذا البيانِ الواضح في القرآن الكريم والسِّيرة النَّبويَّة ممَّن يخطئ في تفسير التَّوحيد، ويظنُّ أنَّ النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – إنَّما جاء لإثبات وَحدانيَّة الصَّانع أو كمال التَّنزيه، وتراه يتساهل في توحيد العبادة، ويتلوَّث بألوانٍ منَ الشِّرك، أو يتوقَّف في تكفير المشركين، وما أُتِيَ إلَّا من تقصيره في تفهُّم القرآن والسِّيرة، حتَّىٰ جهِل دين المشركين: الَّذين بُعِث النَّبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – لدعوتهم وجهادهم، ولذٰلك يُحكىٰ عن عمرَ بنِ الخطَّاب أنَّه قال: «تُنقَض عُرى الإسلام عُروةً عُروةً إذا نشأ في الإسلام من لم يعرفِ الجاهليَّة».[2]

المسألة الرَّابعة: أثر مركزيَّة التَّوحيد في فهم السِّيرة وتفسير الدِّين.

من تبيَّن هٰذه الحقيقةَ السَّاريةَ في السِّيرة النَّبويَّة من أوَّلها إلىٰ آخرها، وهي حرص النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – علىٰ إخلاص الدِّين لله سبحانه، وإعلاء كلمته، فَهِمَ الرِّسالةَ علىٰ وجهها، وفَهِمَ دين الإسلام بأصوله وفروعه، ومن أخلَّ بها، عَمِيَت عليه مقاصد الشَّريعة، واختلَّ ترتيبه لأولويَّاتها، وهٰذا نراه جليًّا في كثيرٍ من أهل البدع: الَّذين قصَّروا في العناية بالتَّوحيد والدَّعوة إليه، وفي الحذر منَ الشِّرك ومحاربة مظاهره، وأعادوا تفسير الإسلام والنُّصوص بنظرةٍ تقدِّم المصالح الدُّنيويَّة والتَّفسيراتِ المادِّيَّةَ؛ فهوَّنوا ما عظَّمه الله تعالىٰ، وما دارت عليه رحى السِّيرة بكُلِّيَّتها، وعظَّموا ما هو دون ذٰلك في شرع الله تعالىٰ، وما لم يكن مقصودًا في السِّيرة إلَّا تبعًا لتمكين التَّوحيد ولتكون كلمة الله هي العليا.

والمقصود هنا أنَّ توحيد الله – تبارك وتعالىٰ – بالعبادة هو الَّذي ينتظم جميع أحداث السِّيرة النَّبويَّة، وهو الرُّوح الَّتي تسري في جميع تفاصيلها؛ فلا يمكن تفسيرُها بصورةٍ صحيحةٍ إلَّا من خلال مركزيَّته في الدِّين والرِّسالة،

---

١. أخرجه الطَّبريُّ (١٣/ ٣٧٥).

٢. "مجموع الفتاوىٰ" لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ (١٠/ ٣٠١).

بخلاف التَّوجُّهات الِاستشراقيَّة: الَّتي تتكلَّف تفسيرَ الأحداث التَّأريخيَّة تفسيرًا مادِّيًّا أو سياسيًّا، موافقًا لطبيعة التَّأريخ الرُّومانيّ؛ فإنَّ هٰذه التَّوجُّهاتِ لا يمكنها تفسيرُ كثيرٍ من أحداث السِّيرة وأحوال النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

المَعْلَم الثَّاني

المقصد من علم السِّيرة: معرفةُ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – معرفةً صحيحةً

أعظم مطالب علم السِّيرة معرفة النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – معرفةً صحيحةً، برَصْدِ هَدْيِه وطريقته في كلِّ حالٍ، حتَّىٰ كأنَّ القارئ يصحبه ويراه، وهٰذا لا يحصل لمن قصَّر في دراسة السِّيرة النَّبويَّة دراسةً شاملةً، ولو نظر في نظرةً عَجلىٰ في الأحاديث المنثورة في كتب السُّنن؛ فإنَّ الرُّؤية الواسعة أصحُّ وأكملُ.

وهٰذه المعرفةُ الصَّحيحة تستلزم آثارًا قويمةً في نفس المسلم، وتُنتج ثمارًا عظيمةً في فهم الدِّين والعمل به، وبيان ذٰلك في ثلاث مسائلَ.

المسألة الأولىٰ: أثر معرفة النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – في محبَّته وتعظيمه.

مَن عرف النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلّم – كما هو، أحبَّه محبَّةً عظيمةً؛ لكريم صفاته، وعظيم أخلاقه، وجميل أفعاله، ولكمال إيمانه بالله عزَّ وجلَّ، وتحقيقه معانيَ التَّوحيد والعبوديَّة بحذافيرها، وهٰذه المحبَّةُ العظيمة تنعكس علىٰ صدق الإيمان بالنُّبوَّة: اعتقادًا ورضًا وطاعةً واتِّباعًا وتوقيرًا وتعظيمًا.

وهٰذه المحبَّةُ من أصول الدِّين مقاصده الكبرىٰ؛ لقول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا يؤمن أحدكم حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والنَّاس أجمعين».[1]

وقد تحقَّقت للصَّحابة – رضِيَ الله عنهم – بفضل رؤيتهم للنَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – واطِّلاعهم علىٰ أحواله وتعاملهم معه، حتَّىٰ فَدَوه بالغالي والنَّفيس في مواقفَ مشهورةٍ، تبيِّن أثرَ معرفة السِّيرة في المحبَّة والتَّعظيم، ومن ذٰلك قول عروةَ بنِ مسعودٍ الثَّقفيِّ زمنَ الحديبيَة: «والله، لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصرَ وكسرىٰ والنَّجاشيِّ، والله، إن رأيت ملكًا قطُّ يعظِّمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمَّدٍ – صلَّى الله عليه وسلَّم – محمَّدًا، والله، إن تَنَخَّم نُخامةً إلَّا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم فدَلَك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهمُ ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النَّظر تعظيمًا له».[2]

---

١. متَّفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (١/ ١٢ برقْم ١٥) ومسلمٌ (١/ ٤٩ برقْم ٤٤) من حديث أنسِ بن مالكٍ، وأخرجه البخاريُّ (١/ ١٢ برقْم ١٤) من حديث أبي هريرةَ، وأخرج (٨/ ١٢٩ برقْم ٦٦٣٢) معناهُ من حديث عبد الله بن هشامٍ التَّيميّ.

٢. أخرجه البخاريُّ (٣/ ١٩٣–١٩٨ برقْمَيْ ٢٧٣١ و٢٧٣٢) من حديث المِسْوَر بن مخرمةَ ومروانَ بنِ الحكم، في قصَّة الحديبيَة بطولها، فالأوَّل مرسل صحابيٍّ، والثَّاني مرسل تابعيٍّ، وأخرج البخاريُّ في موضعٍ آخرَ (٣/ ١٨٨ برقْمَيْ ٢٧١١ و٢٧١٢) بعض هٰذه القصَّةِ، عن مروانَ والمِسْوَر بن مخرمةَ، يخبرانِ عن أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فتبيَّن اتِّصال الحديث، وانظر "فتحَ الباري" لابن حجرٍ (٥/ ٣٣٣).

المسألة الثَّانية: تصحيح معرفة النَّبيّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – لِلاقتداء به.

مَن علم سنَّة النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أمكنه أن يتَّبِعَه ويقتديَ به؛ فيستقيمَ على الدِّين قويمًا، كما شرعه الله لعباده؛ فإنَّ النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – هو النَّموذج البشريُّ الكامل في إسلامه لله – عزَّ وجلَّ – وتعبُّده بدين الإسلام، كما قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «خيرُ الهُدَىٰ هُدَىٰ محمَّدٍ».[١]

ولهٰذا أصل الدِّين في الحقيقة؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]؛ فعلَّق الإيمان به وباليوم الآخر علىٰ الِاقتداء برسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، ولقول النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «من رغِب عن سنَّتي فليس منِّي»؛[٢] فبَرِئ ممَّن أعرض عنِ الِاقتداء به.

المسألة الثَّالثة: أثر البناء الإيمانيّ الصَّحيح في تطلُّب المقصود من السِّيرة.

ومِنَ أهل الأهواء والبدع مَن يعكس هٰذه القضيَّةَ؛ فيَرسُم للنَّبيّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – صورةً في خياله، تناسب توجُّهاتِه وأذواقَه، ثمّ يَجهَد في إثباتها للنَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهو – في الحقيقة – يَفرِض على النَّبيّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – أن يوافق آراءَه واختياراتِه؛ فهو لا يَتَّبع النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإنَّما يتَّبع هواه، ولا يعبدُ الله عزَّ وجلَّ، وإنَّما يعبد هواه، وفيه قال الله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

وكَثُرَ هٰذا في زماننا، فنجد المنافقين – المسمَّينَ بالعَلمانيّينَ – قد أُشرِبوا في قلوبهم مبادئ الغرب وأوضاعَهم، حتَّىٰ جعلوها معيارَ الحقِّ والباطل والحسن والقبيح، وصارت سابقةً في نفوسهم للدِّين ولسُنَّة النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأوجبوا – ولو بلسان حالهم وتصرُّفاتهم – على النَّبيّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – أن يوافقها، ومنعوا أن يَصدُرَ منه ما يخالفها، ثمَّ نظروا من خلالها في الأحاديث والآثار؛ فأوَّلوها علىٰ غير وجوهها لتلائمَ قوانين الغرب ونُظُمَهم، مهما كانت صريحةً في خلاف ذٰلك! وردُّوا ما يعارض ذٰلك، ولو كان في أعلىٰ درجات الصِّحَّة الثُّبوت عنِ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم! ولهٰذا قلبٌ لحقيقة الدِّين، وانسلاخٌ من معنى الإسلام والإيمان.

والواجب تقديم الله ورسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – علىٰ كلّ هوًى ورأيٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات]، وقرأ يعقوبُ الحضرميُّ: ﴿لَا تَقَدَّمُواْ﴾، أيْ: لا تتقدَّموا على الله – سبحانه – ورسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – بأهوائكم وآرائكم،[٣] بل قَدِّموا النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – وسيروا وراءه مقتفين آثارَه، علىٰ حدِّ قول الله – تعالىٰ – في موضعٍ آخرَ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

---

١. أخرجه مسلمٌ (٣/ ١١ برقْم ٨٦٧) من حديث جابرِ بن عبد الله.

٢. متَّفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (٧/ ٢ برقْم ٥٠٦٣) ومسلمٌ (٤/ ١٢٩ برقْم ١٤٠١) من حديث أنسِ بن مالكٍ.

٣. انظرِ "التَّفسيرَ البسيط" للواحديّ (٢٠/ ٣٣٩).

فهٰذا موجَب الشَّرع، وهو أيضًا موجَب الإيمان بالله سبحانه، وبرسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومن تخلَّىٰ منه، فلانتفاء إيمانه في الحقيقة؛ لأنَّ عدم اللَّازم يوجب عدم الملزوم، فعدم الطَّاعة الكاملة لعدم الإيمان الكامل، وعدم الطَّاعة بالكلِّيَّة لعدم الإيمان بالكلِّيَّة، وهٰذا معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

فينبغي لقارئ السِّيرة النَّبويَّة ودارسها أن يتطلَّب هٰذا المقصدَ العظيمَ، وهو معرفة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ليراه بعين قلبه، وإن فاته أن يراه بعين رأسه، ويصحبه بروحه في صَفَحات الكتب، وإن فاته أن يصحبه ببدنه في حياته؛ فتَكمُلَ بذٰلك محبَّتُه وتعظيمُه، ويتهيَّأَ له أن يتَّبعه ويَصِحَّ تديُّنه بما شرعه الله ورضِيَه.

ولا ينبغي لدراسة السِّيرة النَّبويَّة أن تكون مجرَّدَ أحاديثَ للسَّمر، يُمِرُّها القارئ علىٰ قلبٍ غافلٍ؛ فإنَّه لا ينتفع بعلمه، وهٰذه صفةٌ ذمَّها الله – تعالىٰ – في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وذٰلك أنَّ الحمار لا يستفيد ممَّا فوق ظهره منَ الأسفار، والله يعصمنا.

المَعْلَم الثَّالث

التَّوسُّط في تفسير السِّيرة والشَّمائل، بين أوهام الغلاة وأخطاء الجفاة

عظَّم الله – جلَّ ثناؤه – شأنَ نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقال له: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشَّرح]، وقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أنا سيِّد ولد آدمَ يومَ القيامة»؛[1] فالواجب أن نُثبِت للنَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – هٰذا المَقامَ العظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وذٰلك بالوسط الشَّرعيِّ، بلا إفراطٍ أو تفريطٍ، وهٰذا مقتضىٰ قول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا تُطرُوني كما أطرتِ النَّصارىٰ ابنَ مريمَ؛ فإنَّما أنا عبدُه؛ فقولوا: عبدُ الله ورسولُه».[2]

فالمسلم يشهد بأنَّ محمَّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – عبدُ الله ورسوله؛ فهو عَبدٌ؛ فلا يُعبَد، وهو رسولٌ؛ فيُصَدَّقُ ويُتَّبَعُ، بخلاف مَن يُضِيف إليه معانيَ الرُّبوبيَّة والإلٰهيَّة؛ فيناقض كونَه عبدًا، ومَن يتوقَّف في قَبول سنَّته مِن أهل البدع والمنافقين؛ فإنَّ ذٰلك يقدح في إيمانهم برسالته.

وفيما يلي بيانٌ لمهمَّاتٍ في هٰذا التَّوسُّطِ الشَّرعيِّ، وذٰلك في ثلاث مسائلَ.

---

١. أخرجه البخاريُّ (٤/ ١٣٤–١٣٥ برقْم ٣٣٤٠) ومسلمٌ (٧/ ٥٩ برقْم ٢٢٧٨) – واللَّفظ له – من حديث أبي هريرةَ.

٢. أخرجه البخاريُّ (٤/ ١٦٧ برقْم ٣٤٤٥) من حديث عمرَ بنِ الخطَّاب.

المسألة الأولىٰ: أخطر صور الغلوِّ الشِّركُ بالله عزَّ وجلَّ.

المسلم موحِّدٌ لله عزَّ وجلَّ، ولا يرفع النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – فوقَ مقتضىٰ عبوديَّته لله تعالىٰ، ولا يتجاوز فيُضيفَ إليه شيئًا من خصائص الرُّبوبيَّة والإلٰهيَّة: الَّتي انفرد الله بها، كعلم الغيب، والاستقلال بالنَّفع والضَّرِّ، والقدرة على الإحياء والإماتة، وتصريف الأرزاق، وغيرِها من معاني الرُّبوبيَّة، ولذٰلك: فإنّه لا يتوكَّل قلبُه على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا يدعوه من دون الله، ولا يستغيث به في الشَّدائد، ولا يطلب منه المَدد، ولا يَصرِف له شيئًا من معاني العبادة.

وقد نهى الله – سبحانه – عنِ الغلوِّ؛ فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النِّساء: ١٧١]، وقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أيُّها النَّاسُ، إيَّاكم والغلوَّ في الدِّين؛ فإنَّما أهلك من كان قبلَكم الغلوُّ في الدِّين».[١]

وكان النَّبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – يُعنىٰ ببيان هٰذه الحقائقِ، وينتفي من كلِّ شبهةٍ تخالفها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ [الجنُّ]، وقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «يا مَعْشَرَ قريشٍ، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم منَ الله شيئًا، يا بني عبد مَنَافٍ، لا أغني عنكم منَ الله شيئًا، يا عبَّاسَ بن عبد المطَّلب، لا أغني عنك منَ الله شيئًا، ويا صفيَّةُ عمَّةَ رسول الله، لا أغني عنكِ منَ الله شيئًا، ويا فاطمةَ بنت محمَّدٍ، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنكِ منَ الله شيئًا»،[٢] والأحاديث في هٰذا المعنىٰ كثيرةٌ.

المسألة الثَّانية: الاعتدال في فهم بشريَّة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

النُّبوَّة صفةٌ كريمةٌ، تُكسِب النَّبيَّ مكانةً عظيمةً، لٰكنَّها لا تخرجه عن بشريَّته، بحيث تبقىٰ فيه لوازمُ الإنسانيَّة وأحكامُها، وقد جمع الله – عزَّ وجلَّ – بين هٰذَينِ الأمرَينِ في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف: ١١٠، وفُصِّلَتْ: ٦]، وقولِه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التَّوبة: ١٢٨]؛ فهو – صلَّى الله عليه وسلَّم – بشرٌ من وجهٍ، وخُلِق ممَّا خُلِق منه البشرُ، من طينٍ ثمَّ من ماءٍ، ومن أبٍ وأمٍّ، ومن لحمٍ ودمٍ، وعاش كما تعيش البشر؛ فأصابه ما يصيبهم منَ التَّعب والمرض والألم، ولم يكن يعلم الغيب، ولا يملك لنفسه أو لغيره النَّفع والضَّرَّ، لٰكنَّه – مع ذٰلك – ليس كغيره منَ البشر من كلِّ وجهٍ؛ لأنَّه نبيٌّ يوحىٰ إليه منَ السَّماء؛ فهو معصومٌ في بلاغ الدِّين وبيانه، وهو مؤيَّدٌ من ربِّه علىٰ خصومه، وله منَ الكرامة والمكانة عند الله – سبحانه – وعند أهل الحقِّ ما لا يبلغه أحدٌ سواه، واختصَّ بمعانٍ لم يشاركْه فيها أحدٌ.

---

١. أخرجه ابن ماجهْ (٤/ ٢٢٨ برقْم ٣٠٢٩)، وصحَّحه ابن حِبَّانَ (الإحسان: ٩/ ١٨٣-١٨٤ برقْم ٣٨٧١)، من حديث عبد الله بن عبَّاسٍ.

٢. متَّفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (٤/ ٦-٧ برقْم ٢٧٥٣) ومسلمٌ (١/ ١٣٣ برقْم ٢٠٦) من حديث أبي هريرةَ.

فالِاعتدال إنَّما يكون بقَرْن نبوَّته – صلَّى الله عليه وسلَّم – ببشريَّته، ونبوَّته تُعلِيه في بشريَّته فوقَ غيره، وبشريَّتُه تصحِّح بلاغه لقومه؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام].

ومن أوهام الغلوِّ الفاسدةِ دعوىٰ أنَّه – صلَّى الله عليه وسلَّم – من نورٍ حسِّيٍّ، وأنَّ الوجود خُلِق من نوره، وأنَّ البشر خُلِقوا لأجله، وليست هٰذه الأوهامِ نابعةً من زيادة محبَّةٍ، بل هي في الحقيقة ناشئةٌ من نقص محبَّةٍ، وكأنَّهم لم تُرضِهم صفةُ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – الَّتي كان عليها في الواقع، فكسَوه صفةً أخرىٰ ترضيهم؛ لأجل أن يحبُّوه فيها، فمحبَّة هٰؤلاءِ فاسدةٌ؛ لتعلُّقها بوَهْمٍ لا حقيقةَ له، وإذا كُشِف لهم بطلانُ ذٰلك الوهمِ، زالت محبَّتهم أو نقصت وضعُفت، وهٰذا بخلاف من يحبُّ النَّبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – كما هو، محبَّةً صحيحةً عن علمٍ ثابتٍ بدليلٍ واضحٍ.

ومن أخطاء الجفاء قولُ بعض المقصِّرين إنَّه – صلَّى الله عليه وسلَّم – مجرَّد بشرٍ، وهٰذا من جنس قول المشركين المكذِّبين لأنبيائهم، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ فبيَّنتِ الرُّسل – عليهمُ السَّلمُ – أنَّهم بشرٌ، لٰكنَّ الله – جلَّ ثناؤه – ميَّزهم علىٰ غيرهم بما منَّ عليهم منَ النُّبوَّة وما يتبعها منَ الوحي والعلم والكرامة.

المسألة الثَّالثة: الِاعتدال في محبَّة النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – وطاعته.

المسلم يطيع النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – لأنّه يبلّغ وَحْيَ الله تعالىٰ؛ فطاعته طاعةٌ لله في الحقيقة: الذي أوحىٰ إليه وأمره بالبلاغ، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾ [النِّساء]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «من أطاعني، فقد أطاع الله، ومن عصاني، فقد عصى الله».[1]

وأيضًا، فإنَّ المسلم يحبُّ النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – أعظمَ من محبَّته لكلِّ مخلوقٍ سواه، كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا يؤمن أحدكم حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والنَّاس أجمعين»،[2] لٰكنَّه يحبُّه – صلَّى الله عليه وسلَّم – في الله، ولله، وطاعةً لله، ولا يحبُّ أحدًا مع الله أو من دون الله.

فهو يحبُّه – صلَّى الله عليه وسلَّم – هٰذه المحبّةَ العظيمةَ لِمَا قام به مِنَ المعاني المحبوبة لله عزَّ وجلَّ: مِن تحقيق التَّوحيد وكمال الإيمان ودوام الطَّاعة، ويحبُّه كذٰلك لأنَّ الله – عزَّ وجلَّ – يحبُّه حبًّا عظيمًا، حتَّىٰ اتّخذه خليلًا كما اتَّخذ إبراهيم – عليه السَّلامُ – خليلًا،[3] ويحبُّه كذٰلك لأنَّ الله – عزَّ وجلَّ – شرع محبَّته وأوجبها علىٰ عباده.

---

١. متَّفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (٤/ ٥٠ برقْم ٢٩٥٧) ومسلمٌ (٦/ ١٣ برقْم ١٨٣٥) من حديث أبي هريرةَ.

٢. متَّفقٌ عليه، وسبق تخريجه، انظر (ص: ٨).

٣. أخرجه مسلمٌ (٧/ ١٠٨ برقْم ٢٣٨٣) من حديث عبد الله بن مسعودٍ.

لٰكنَّ المسلم لا يحبُّ أحدًا مع الله، بحيث يزاحِمُ حبُّه حبَّ الله، أو يقتطِع من قلبه شيئًا من دون الله، كمن قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فمحبَّة المسلمين للنَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – تابعةٌ لمحبَّة الله عزَّ وجلَّ، وليست مستقلَّةً عن محبَّة الله عزَّ وجلَّ.

المَعْلَم الرَّابع

الوفاء بحقيقة السِّيرة: أنَّها سيرةُ لنبيٍّ مرسلٍ، صلَّى الله عليه وسلَّم

يجب على النَّاظر في السِّيرة أن يستحضر أنَّها سيرة نبيٍّ مرسلٍ منَ الرَّبِّ عَظُمَ سلطانُه، وأن يَفطِن إلىٰ لوازم هٰذه الحقيقةِ في تلقِّي السِّيرة وفهمها واستنباط أحكامها؛ فليست هي سيرةً لواحدٍ من عموم النَّاس، ولا لعظيمٍ من قادة الأمم أو أذكياء العلماء، بحيث تجري علىٰ معهود النَّاس في اجتهاداتهمُ القاصرة، وداخلَ حدود القوانين الطبيعيَّة والعادات المستمرَّة، بل هي سيرةٌ تجري بعنايةٍ إلٰهيَّةٍ لطيفةٍ، وتصرُّفها رحمةٌ إلٰهيَّةٌ كريمةٌ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح].

وتتَّضح ملامح هٰذا المَعْلَمِ وفوائدُه في ثلاث مسائلَ.

المسألة الأولىٰ: معنىٰ شهادة أنَّ محمَّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – رسول الله.

الشَّهادة هي الإقرار الجازم، حتَّىٰ كأنَّك تشهد الأمر، أيْ: تحضره بنفسك، وتراه بعينك.[1]

وكلمة الدُّخول في الإسلام هي شهادةُ أن لا إلٰهَ إلَّا الله وأنّ محمَّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – رسول الله، فمعنىٰ (لا إلٰهَ إلَّا الله) أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله؛ فالمسلم يُقِرُّ بأنَّ الله وحدَه هو المستحقُّ للعبادة، وأنَّ كلَّ ما عُبِد سواهُ باطلٌ، لا يستحقُّ العبادة، ولا تجوز عبادته، ومعنىٰ (محمَّدٌ رسول الله) أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – قد أوحىٰ إليه بدينه، وأرسله به إلى النَّاس كافَّةً؛ ليُبَلِّغَهم إيّاه، ويأمرَهم به، ويجاهدَهم على الخضوع له والعمل به.

فإقرار المسلم بذٰلك يتضمَّن تصديق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – فيما يُخبِر عن ربِّه ودينه، والتسليمَ له، واتّباعَه، فكما يوحِّد المسلمُ ربَّه – عزَّ وجلَّ – بالعبادة، ولا يشرك به شيئًا، فإنّه يوحِّد النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – بالاتّباع؛ فلا يتلقَّى الدِّين إلَّا من جهته؛ فيقبل منه كلَّ ما جاء به، من غير توقُّفٍ ولا تردُّدٍ، ولا يقبل من غيره أيَّ شيءٍ من أمر الدِّين.

وما صدر عنه – صلَّى الله عليه وسلَّم – مِنَ التَّشريع هو السُّنَّة، وما أحدثه النَّاس في الدِّين، ولم يكن من هديِ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – هو البدعة، والنُّصوص في حجِّيَّة السُّنَّة وتحريم البِدَع كثيرةٌ جدًّا؛ فالبدع كلُّها

---

١. "الصِّحاح" للجوهريِّ (٢/ ٤٩٣-٤٩٤).

محرّمةٌ، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «كلُّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلُّ ضلالةٍ في النار»،[1] وذٰلك لكونها نوعَ شركٍ في التَّشريع، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشُّورىٰ: ٢١].

المسألة الثَّانية: لوازم شهادة أنَّ محمَّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – رسول الله.

ويُعلم ممّا سبق أنَّ الشَّهادة لنبيّنا محمَّدٍ – صلَّى الله عليه وسلَّم – بالرِّسالة ليست مجرَّد كلمةٍ تَلُوكها الألسنة، بل هي حقيقةٌ عظيمةٌ تستوجب على الشَّاهد أمورًا، لا تَصِحُّ إلَّا بها، فمنها:

١. تصديق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – فيما أخبر، مع الثِّقة بأنَّ خبره حقٌّ وصدقٌ، ولا يتطرَّق إليه الخلل بوجهٍ منَ الوجوه، ومن ذٰلك ما صحَّ عنه – صلَّى الله عليه وسلَّم – في صفات الله عزَّ وجلَّ، وفي أحوال الملائكة والجِنِّ، وفي نعيم القبر وعذابه، وفي صفة يوم القيامة والجنَّة والنَّار، وفي قَصَص الأنبياء والسَّابقين، وغيرِ ذٰلك مِن أنباء الغيب.

٢. طاعة النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – فيما أمر، واجتناب ما نهىٰ عنه، مع اليقين التامِّ أنَّه لا يأمر إلَّا بخيرٍ، ولا ينهىٰ إلَّا عن شرٍّ، سواءٌ علمنا الحكمة في أمره ونهيه أو جَهِلناها، وقد قال – تعالىٰ – في صفته: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٣. ألَّا يُعبَد اللهُ – سبحانه وتعالىٰ – إلَّا بما صحَّ عنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وألَّا يُعبدَ بالبِدَع والمحدَثاتِ: الَّتي لم يجئ بها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد قال: «من عَمِل عملًا ليس عليه أمرنا، فهو رَدٌّ»،[2] أيْ: مردودٌ عليه، غيرُ مقبولٍ منه.

ويجب علىٰ قارئ السِّيرة النَّبويَّة أن يتلقَّاها علىٰ هٰذا الوجهِ؛ فيُسلِمَ لِمَا تدلُّ عليه منَ الأحكام، ويعتقدَ أنَّها دينٌ يجب قَبوله والخضوعُ له؛ فيحرِصَ كلَّ الحرص علىٰ أن يستفيدَ منها في واقعه؛ فيعتبرَ بها ويقتديَ بمواقف النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

المسألة الثَّالثة: أثر الرِّسالة في فهم السِّيرة النَّبويَّة.

استحضار النُّبوَّة يصحِّح فهم السِّيرة وتفسيرَ أحداثها؛ لأنَّ من لوازمها عصمةَ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – في أقواله وأفعاله ومواقفه، وتأييدَ الله – تبارك وتعالىٰ – له بما يدلُّ علىٰ صدقه منَ البراهين والخوارق، ونَصْرَه له علىٰ أعدائه وإمدادَه بجنوده الَّتي لا يعلمها إلَّا هو.

ومن جرَّد السِّيرة من حقائق النُّبوَّة، هَجَمَ علىٰ تصرُّفات النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – بمجرَّد الهوىٰ، وأغار عليها بالنَّقد، وأعمل فيها مِعْوَلَ التَّخطئة والرَّدِّ، وحال هٰذا الحُمقُ بينه وبين الاستهداء بهٰذه السِّيرةِ المعصومة الكاملة،

---

١. أخرجه مسلمٌ (٣/ ١١ برقْم ٨٦٧) من حديث جابرِ بن عبد الله.

٢. أخرجه مسلمٌ (٥/ ١٣٢ برقْم ١٧١٨) من حديث أمِّ المؤمنين عائشةَ.

الَّتي هي الحقُّ محضًا: لا يشوبه اختلالٌ، ولا يعترِضه احتمالٌ، كما قال ربُّنا عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النِّساء: ١٠٥]، وقال: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النَّجم].

وهٰذا مضبوطٌ بحدود البلاغ، كما هو مبسوطٌ في أصول الفقه ومباحثِ العصمة من كتب الِاعتقاد؛ لقول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «إنَّما أنا بشرٌ؛ إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم، فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيي، فإنَّما أنا بشر».[1]

ومن عطَّل السِّيرة من لوازم النُّبوَّة، احتاجَ إلىٰ فهمها بصورةٍ مادِّيَّةٍ محضةٍ، لا تكفي لتفسير كثيرٍ من أحداثها ونتائجها؛ فلم يمكنه فهمُ معجزات النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وظَفَرِه بقلَّة العَدد والعُدد علىٰ أعدائه في جمهوعهم الغفيرة وأسلحتهمُ الكثيرة، بل لن يصدِّقَ كثيرًا من أخبار السِّيرة الَّتي تخرج عنِ المعتاد في قوانين الطبيعة، أوِ الغالبِ في عادات النَّاس.

فلا سبيلَ إلىٰ تلقِّي السِّيرة وفهمها فهمًا قويمًا إلَّا مع استحضار حقيقتها: أنَّها سيرةُ نبيٍّ مرسلٍ منَ الله جلَّ جلالُه، وما يَتْبَع ذٰلك منَ العصمة والتَّأييد والنَّصر، ولا سبيلَ إلىٰ الِانتفاع بها أيضًا إلَّا من هٰذا الوجهِ.

المَعْلَم الخامس

مراعاة قارئ السِّيرة لحقوق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – علىٰ أمَّته

حقُّ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – علىٰ أمّته عظيمٌ، وذٰلك لمكانته العالية عند الله عزَّ وجلَّ، والمسلمون يُكْرِمون من يحبُّه الله عزَّ وجلَّ، ولفضله العظيم على الأمَّة، حيث كان السَّببَ الَّذي أخرجهمُ الله به مِنَ الظُّلمات إلى النُّور، وأنقذهم به منَ النَّار والعذاب المقيم.

وحقوقه – صلَّى الله عليه وسلَّم – كثيرةٌ، فمنها:

١. أن نُحبَّه محبّةً عظيمةً، فوقَ محبَّتنا لأنفسنا وآبائنا وأمَّهاتنا، كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا يؤمن أحدكم حتَّىٰ أكون أحبَّ إليه من والده وولده والنَّاس أجمعين».[2]

٢. أن نحترمَه ونعظِّمَه، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

٣. أن ننصُرَه وننصُرَ سنَّته بكلِّ ما نستطيع، ولو بأرواحنا.

---

١. أخرجه مسلمٌ (٣/ ١١ برقْم ٨٦٧) من حديث رافعِ بن خَدِيجٍ، وأخرج له شاهدَينِ، أحدهما من حديث طلحةَ بنِ عُبيد الله، والآخر من حديث أنسِ بن مالكٍ.

٢. متَّفقٌ عليه، وتقدَّم تخريجه، انظر (ص: ٨).

ومِن ذلك زَجرُ كلِّ من يعتدي عليه أو يسخر منه، كما فعل الفَجَرة في فِرَنسا مؤخَّرًا، وقد أحسن كثيرٌ منَ المسلمين، فعمِلوا ما يمكنهم، فتداعَوا إلىٰ مقاطعة منتجاتهم؛ ليَضطرُّوهم إلىٰ منع التجاوُز علىٰ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، وليكونوا عبرةً لغيرهم أيضًا.

٤. أن نُصَلِّيَ ونُسَلِّم عليه، خاصَّةً عند ذِكره، وأن نُكثِر منَ الصَّلاة والسَّلام عليه، خاصَّةً في المواضع المشروعة، وقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «البخيل الَّذي ذُكِرتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ»،[١] ورُوِي أنَّه قال: «أكثروا منَ الصَّلاة عليَّ في يومِ الجُمُعة».[٢]

٥. أن نُكرِمَه في أصحابه وأهل بيته، بأن نحترمَهم، ولا نذكرَهم إلَّا بخيرٍ، كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتَّخذوهم غَرَضًا من بعدي، فمن أحبَّهم، فبحبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم، فببغضي أبغضهم»،[٣] أيْ: من أحبَّهم، فإنَّما أحبَّهم لكونه يحبُّني، ومن أبغضهم، فإنَّما أبغضهم لكونه يُبغِضني، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «أذكِّرُكمُ اللهَ في أهل بيتي» ثلاثًا.[٤]

وأصحابه هم كلُّ من لقِيَه مؤمنًا به،[٥] وقد أثنى الله – عزَّ وجلَّ – عليهم في مواضعَ كثيرةٍ من كتابه، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التَّوبة].

وآلُه همُ المؤمنون من قرابته، وهم أربعةُ أصنافٍ: أولاده وذُرِّيَّتُه، وبنو هاشمٍ، وبنو المطَّلِب، ومن يلحقهم من مواليهم، وأزواجُه أمَّهاتُ المؤمنين.[٦]

الخاتمة

الحمد لله في البدء والختام، والحمد لله علىٰ توفيقه للتَّمام، وأفضلُ الصَّلاة وأتمُّ السَّلام، علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ خيرِ الأنام، وعلىٰ آله الكرام، وصحبه العُدولِ العِظام، ومن تَبِعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين.

---

١. أخرجه التِّرْمذيُّ (٦/ ١٤٧-١٤٨ برقْم ٣٨٥٨) من حديث عليِّ بن أبي طالبٍ، وقال: «هٰذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ».

٢. أخرجه أبو داودَ (٢/ ٢٧٩ برقْم ١٠٤٧) والنَّسائيُّ (٣/ ١٤١-١٤٢ برقْم ١٣٧٤) وابنُ ماجهْ (٢/ ٥٥٦ برقْم ١٦٣٦) من حديث أوسِ بن أوسٍ.

٣. أخرجه التِّرْمذيُّ (٦/ ٣٨٢-٣٨٣ برقْم ٤٢٠٠) من حديث عبد الله بن مغفَّلٍ، وقال: «هٰذا حديثٌ غريبٌ».

٤. أخرجه مسلمٌ (٧/ ١٢٢-١٢٣ برقْم ٢٤٠٨) من حديث زيدِ بن أرقمَ.

٥. "معرفة علوم الحديث" لابن الصَّلاح (ص: ٢٩٣).

٦. "فضل أهل البيت" للشَّيخ عبدِ المحسن العَبَّاد (ص: ٦-١٢).

أمَّا بعدُ، فهٰذه أعظم المَعالم المنهجيَّة، الَّتي تضبط مَسَار النَّاظر في السِّيرة النَّبويَّة؛ ليستقيمَ فهمُه، وتكمُلَ فائدتُه، ويعظُمَ أجرُه، وهي – في جملتها – من موجَبات أصول الِاعتقاد؛ فلا يستقيم الإيمان إلَّا بها، ولا تؤتِي السِّيرةُ ثمارَها إلَّا معها، وبالله – سبحانه – التَّوفيقُ.

وأرصد في هٰذه الخاتمةِ أبرز نتائج البحث؛ تقريبًا لفائدتها، وتنويهًا بأهمِّيَّتها، وأُعْقِبُها بعضَ التَّوصِيَات؛ لعلَّ الله – جلَّ ثناؤه – ينفع بها.

أبرز النَّتائج.

١. كلُّ تفاصيل السِّيرة النَّبويَّة تدور علىٰ معنًى واحدٍ، وهو اجتهاد النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – في تحقيق التَّوحيد، وهو إفراد الله – عزَّ وجلَّ – بالعبادة، فذٰلك هو نِظَامُ السِّيرة كلِّها: من أوَّلها إلىٰ آخرها.

٢. توحيد الإلٰهيَّة كان هو سببَ الخلاف بين النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – والمشركين.

٣. لا يمكن فهم السِّيرة النَّبويَّة إلَّا بملاحظة حرص النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – على التَّوحيد، في تصرُّفاته وغزَواته ومواقفه، ومن فسَّرها بتوجيهٍ مادِّيٍّ أو سياسيٍّ، اضطرب نظرُه، ولم يَخلُصْ إلىٰ حقائق المقاصد النَّبويَّة.

٤. المقصد الأعظم لدراسة السِّيرة النَّبويَّة هو معرفة النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – معرفةً صحيحةً واسعةً، مبنيَّةً على التَّحقيق، وتَعُمُّ جميع معانيه.

٥. من عرف النَّبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – كما كان في حقيقته، أحبَّه – ولا بدَّ – المحبَّةَ العظيمة؛ لجمال شمائله، وحُسن أقواله وأفعاله، وكمال عبوديَّته لله عزَّ وجلَّ.

٦. معرفة النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – شرطٌ لاتِّباعه والِاقتداء به والِاهتداء بهُداهُ، ولفهم دين الإسلام كما شَرَعه الله – سبحانه – ورَضِيَه.

٧. مبنى الإسلام والإيمان علىٰ الإذعان للنَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – والثِّقة فيه، ولازم ذٰلك تلقِّي الدِّين من جهته، ولا يجوز عكس هٰذه القضيَّةِ، بأن يَفرِض امرؤٌ برأيه وهواهُ صورةً يستحسنها ثمَّ يَكسُوَها للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٨. رفع الله – جلَّ ثناؤه – مقام النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – علىٰ سائر الخلق، في الدُّنيا والآخرة، وهٰذا يوجب تعظيمَه التَّعظيمَ المشروعَ، بلا إفراطٍ أو تفريطٍ؛ فهو عبد الله – تعالىٰ – ورسولُه، عبدٌ فلا يُعبَد، ورسولٌ فيُطاعُ ولا يُعصىٰ.

٩. لا يجوز الغلوُّ في الدِّين مطلقًا، ولا في النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فيُحَبُّ المحبَّةَ العظيمةَ في الله سبحانه، لا مع الله، ويطاع لكونه المبلِّغَ عنِ الله طاعةً لله.

١٠. لا يصحُّ تجاوزُ ما ثبت في السِّيرة من فضائل النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – وخصائصِه إلىٰ دعوىٰ ما لم يصحَّ، وما لم يَرِدْ، وما لا يجوز؛ فإنَّ ما صحَّ كثيرٌ طيِّبٌ، وفيه غُنْيَةٌ عن غيره.

١١. يجب علىٰ قارئ السِّيرة أن يستحضر أنَّها سيرةٌ لنبيٍّ مرسلٍ، مؤيَّدٍ منَ الله، معصومٍ في أقواله وأفعاله، نؤمن به ونتَّبعه، وليست سيرةً شخصيَّةً لواحدٍ من عموم بني آدمَ، تُقرأ للنَّقد أوِ السَّمَر.

١٢. من موجَبات الإيمان بالنُّبوَّة والرِّسالة: تصديق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهىٰ عنه، وألَّا يُعبدَ الله إلَّا بما شرعه.

١٣. حقوق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – علىٰ أمَّته كثيرةٌ، فمنها محبَّته، وتعظيمه، ونصرة دينه وسنَّته، وإكرامُ أهل بيته، واحترامُ صحابته.

١٤. من حقوق النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – علىٰ قارئ السِّيرة دوام الصَّلاة والسَّلام عليه، كلَّما ذُكِر اسمه، وهي عبادةٌ عظيمةٌ، وثوابها جزيلٌ، ولا يستثقلها إلَّا بخيلٌ.

التَّوصِيَات.

١. جمع شواهدَ منَ السِّيرة النَّبويَّة في كلِّ مَعْلَمٍ منَ المعالم المذكورة في هٰذا البحثِ؛ لتوضيحه، وبيان كيفيَّة انتهاجه في دراسة السِّيرة النَّبويَّة بصورةٍ عمليَّةٍ تطبيقيَّةٍ.

٢. استثمار السِّيرة النَّبويَّة في رسم المنهج الإسلاميِّ الصَّحيح في تلقِّي الدِّين، وردِّ محاولات المنافقين لتحريف الدِّين وتبديله؛ فإنَّ المنهج العمليَّ الكلِّيَّ أوضحُ منَ النَّظر الجزئيِّ في آحاد النُّصوص والأحكام.

٣. دراسة التَّوحيد دراسةً موضوعيَّةً شاملةً من خلال السِّيرة النَّبويَّة؛ فإنَّها من أعظم ما يعين علىٰ فهم حقائق التَّوحيد، وفهمِ ما يضادُّه من ألوان الشِّرك.

٤. تنقية مصنَّفات المتأخِّرين في السِّيرة والشَّمائل والمدائح من مظاهر الغلوِّ، والتَّنبيه علىٰ ما لم يَصِحَّ فيها بدليلٍ، ولو كان مثله جائزًا للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٥. استثمار صحيح السِّيرة النَّبويَّة في الدِّفاع عنِ النَّبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – وصدِّ شُبُهات الطَّاعنين فيه، وكشفِ ما فيها منَ كذبٍ وتزويرٍ.

وهٰذا آخر المقصود، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّى الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر

- البخاريُّ، محمَّدُ بن إسماعيلَ الجعفيُّ مولاهمُ. *الجامع المسند الصَّحيح المختصر من أمور رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – وسننه وأيَّامه*. تحقيق: محمَّدٍ زُهَيرِ بن ناصرٍ النَّاصرِ. بيروتُ: دار طوق النَّجاة، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٢٢.
- ابن بَلَبَانَ، عليُّ بن بَلَبَانَ الفارسيُّ. *الإحسان في تقريب صحيح ابن حِبَّانَ*. تحقيق: شُعيبٍ الأَرْنَاءُوطِ. بيروتُ: مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٠٨.
- التِّرْمِذيُّ، محمَّدُ بن عيسى السُّلَميُّ. *الجامع الكبير*. تحقيق: شُعَيبٌ الأَرْناءُوطُ وآخرين. بيروتُ: دار الرِّسالة العالَميَّةِ، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٣٠.
- ابن تَيْمِيَّةَ، أحمدُ بن عبد الحليم الحرَّانيُّ. *مجموع الفتاوىٰ*. جمع: عبد الرَّحمٰن بن محمَّدِ بن قاسمٍ. المدينة المنوَّرة: مجمَّع الملك فهْدٍ لطباعة المصحف، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤١٦.
- الجوهريُّ، إسماعيلُ بن حمَّادٍ الفارابيُّ. *تاج اللُّغة وصِحاح العربيَّة*. تحقيق: أحمدَ بنِ عبد الغفور بن عطَّارٍ. بيروتُ: دار العلم للملايين، الطَّبعة الرَّابعة، ١٤٠٧.
- ابن حَجَرٍ العسقلانيُّ، أحمدُ بن عليٍّ الكِنَانيُّ. *فتح الباري بشرح صحيح البخاريِّ*. تحقيق: محبِّ الدِّين الخطيبِ. بيروتُ: دار المعرفة، ١٣٧٩.
- أبو داودَ السِّجِسْتانيُّ، سليمانُ بن الأشعث الأزديُّ. *السُّنن*. تحقيق: شُعَيبٍ الأَرْناءُوطِ ومحمَّدٍ كاملٍ قُرَّهْ بَلَلِيْ. دِمَشقُ: دار الرِّسالة العالَميَّة، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٣٠.
- الزَّبِيديُّ، محمَّدٌ مرتضَى بنُ محمَّدٍ الحسينيُّ. *تاج العروس من جواهر القاموس*. تحقيق جماعةٍ منَ الباحثين. الكويت: المجلس الوطنيُّ للثَّقافة والفنون والآداب، الطَّبعة الأولىٰ، ١٣٨٥ – ١٤٢٢.
- السُّيوطيُّ، عبد الرَّحمٰن بنُ أبي بكرٍ الخُضَيريُّ. *قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة*. تحقيق: خليلٍ محيي الدِّين المَيْسِ. بيروتُ: المكتب الإسلاميُّ، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٠٥.
- ابن الصَّلاح، عثمانُ بن عبد الرَّحمٰن الشَّهْرَزُوريُّ. *معرفة أنواع علم الحديث*. تحقيق: نور الدِّين عِتْرٍ. دِمَشقُ: دار الفِكْر، دون طبعةٍ، ١٤٠٦.
- الطَّبريُّ، محمَّدُ بن جَرِيرٍ. *جامع البيان عن تأويل آيِ القرآن*. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التُّرْكِيْ. القاهرة: دار هَجَرَ، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٢٢.
- العَبَّاد، عبد المحسن بنُ حَمَدٍ البَدْرُ. *فضل أهل البيت وعلوُّ مكانتهم عند أهل السُّنَّة والجماعة*. الرِّياض: دار ابن الأثير، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٢٢.
- الفَيُّوميُّ، أحمدُ بن محمَّدٍ الحَمَويُّ. *المصباح المنير في غريب الشرح الكبير*. تحقيق: عبد العظيم الشِّنَّاويِّ. القاهرة: دار المعارف، الطَّبعة الثَّانية، بدون تأريخٍ.

- ابن ماجهْ، محمَّدُ بن يزيدَ القزوينيُّ. *السُّنن*. تحقيق: شُعَيبٍ الأَرْناءُوطِ وآخَرِينَ. دِمَشقُ: دار الرِّسالة العالَميَّة، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٣٠.
- مسلمٌ، مسلمُ بن الحجَّاج القُشَيريُّ. *المسند الصَّحيح المختصر منَ السُّنن بنقل العدل عنِ العدل عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم*. تحقيق: محمَّدٍ زُهَيرِ بن ناصرٍ النَّاصرِ. بيروتُ: دار طوق النَّجاة، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٣٣.
- النَّسائي، أحمدُ بن شُعَيبٍ. *السُّنن الكبرىٰ*. تحقيق: حسنِ بن عبد المنعم شَلَبِيْ. بيروتُ: مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٢١.
- النَّسائي، أحمدُ بن شُعَيبٍ. المجتبىٰ. تحقيق: محمَّدِ بن رضوانَ العِرْقَسُوسيّ ومحمَّدٍ أنسِ بن مصطفَى الخِنّ. بيروتُ: دار الرِّسالة العالَميَّةُ، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٣٩.
- الواحِديُّ، عليُّ بن أحمدَ النَّيسابُوريُّ. *التَّفسير البسيط*. تحقيق جماعةٍ منَ الباحثين. الرِّياض: جامعة الإمام محمَّدِ بن سُعودٍ الإسلاميَّةُ، الطَّبعة الأولىٰ، ١٤٣٠.